إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنز أنت هذا الدعاء

الدُّعَاءُ

خيرية الحارثي





إذا كنز الناس الذهب والفضة

فاكنز أنت هذا الدعاء

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، اللهم اشرح لي صدري، ويَسِّر لي أمري، واحلُل عقدةً من لساني، يَفقهوا قولي، اللهم إني أسألك الهدى والسَّداد وابتغاء وجهك ومرضاتك!

وبعد:

فاللهم بارِك لنا في أعمارنا، واجعلها معمورةً بطاعتك، اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي مَن تشاء إلى صراط مستقيم، لقد أوتي رسولنا صلى الله عليه وسلم جوامعَ الكَلِم؛ فقد كان دعاؤه شاملاً كاملاً، لا يعتريه نَقْصٌ، ولا يحتاج إلى تكميل، فعلى المسلم أن يُلازِم المأثورَ عن مُعلِّم الخير وإمام المتقين، قال القاضي عياض - رحمه الله -: "أذِن الله في دعائه، وعلَّم الدعاء في كتابه لخليقته، وعلَّم النبي الدعاءَ لأمته، واجتمعت فيه ثلاثة أشياء: العلم بالتوحيد، والعلم باللغة، والنصيحة للأمة".

فجملة دعائه صلى الله عليه وسلم يَشمَل خير الدنيا والآخرة، فلو تَمسَّك كلٌّ منا بما دعا به نبينا، ودَاوَم عليه، لنال شرفَ الدنيا والآخرة، وجميع دعائه عليه الصلاة والسلام بما يحتويه من بلاغة، قليل الألفاظ، جامع لمعانٍ كثيرة، فبعضه يُكمِّل بعضًا، وهو الشفاء لعِلل القلوب والأبدان، وجلاء البصائر عما يعتريها من حُجُب الغفلة، وله تأثير يَرسَخ في القلوب؛ فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَستحِبُّ الجوامعَ من الدعاء، ويَدَع ما سوى ذلك"؛ رواه أبو داود بإسناد جيد، في كتاب الصلاة (باب الدعاء)، وقد أفاد الحديثُ أن الدعاء الجامع يوصل الداعي إلى مطلبه بأسهل الطرق.

والدعاء عبادة جليلة لا غنى للمسلم عنها؛ ففي حديث النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((الدعاء هو العبادة))؛ رواه أبو داود، وقال: حديث حسن؛ قال القاضي عياض: "أي: هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تُسمَّى عبادة؛ للدَّلالة على الإقبال على الله تعالى والإعراض عما سواه".



فالدعاء صِلَة بين الضعيف (الإنسان) والقوي (الخالق)، لا غنى عنه في صغيرة أو كبيرة، إذا عرَف الإنسانُ كمالَ الخلاق العظيم، وأنه قادر لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعرف المخلوق ضعْفَه، وأيقن أنه لا حول له ولا قوة له إذا لم يتَّصِل بقوة الله، وأنه قادر ولا حدَّ لقدرته، مع يقين العبد المؤمن في قُرْب الله منه وسماع دعائه، ومعرفته واطلاعه على صوت عبده، وهو يقول: يا رب، ما لي إله سواك، وعبيدك سواي كثير، يُنادي: "يا رب، يا رب"، في أي أمر يعترض له من أمور الدنيا، وأي أمر يَشغَله من أمور الآخرة، في أي أمر يرجوه، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه، فيَقرُن عملَه الصالح بالدعاء؛ لينال رحمة الله وتوفيقه، وتَكمُل له مراتب العبودية الحقة من التذلل بين يدي ربه، يتذلَّل بين يديه ويَبتهِل حتى يُفتَح له من لذيذ مناجاته ما يَزيده تَعلُّقًا بربه، وقُرْبًا منه، وتنفكُّ عنه قيودُ الهموم، وتنجلي عنه غيوم الأحزان، ويعتاد الثناء والمدح والتوسل لخالقه، واعترافه بفضله.

قال بعض العارفين: "إنه لتكون لي حاجة إلى الله، فأسأله إياها فيَفتَح عليَّ من مناجاته ومعرفته والتذلل بين يديه والتملق بين يديه، ما أُحِب معه أن يؤخِّر عني قضاءها، وتدوم لي تلك الحال"؛

فتكون راحة نفسه لذة مناجاته يَأنس بها، وينشرح لها صدره، ليُحقِّق مقامَ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5]، أسأل الله أن يُوفِّقني لشرح هذا الدعاء وبيان بعض معانيه ولن أحصي بيانه، ولن أصل إلى الإجلال والإعظام لبلاغة نبينا صلى الله عليه وسلم، فهو يحدث بنور من ربه، وماهو إلا جهد المقل، جعلنا الله ممن يُرزَقون مجاورته في الفردوس الأعلى.

روى الطبراني في معجمه الكبير بسند ثابت، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا شداد بن أوس، إذا كنَز الناسُ الذهبَ والفضة، فاكنِز هؤلاء الكلماتِ: اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمر والعزيمة على الرُّشد، وأسألك شُكْر نعمتك، وحُسْن عبادتك، وأسألك لسانًا صادقًا، وقلبًا سليمًا، وأسألك من خير ما تَعلَم، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب))؛ الحديث صحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (3228)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.



دعاء عظيم غفَل عنه كثيرٌ من الناس، مع العلم أننا بحاجة إليه في زمن كهذا، عُجَّ بالفتن، وعمَّت فيه البلوى، واختلط (الحابل بالنابل)، "وبهذا يكون العبد دائمًا مُتعلِّقًا بربه لا بالمخلوقين، وتكون همَّته لله بملازمة الدعاء والتوسل إليه بأسمائه وصفاته في كلِّ حال وعلى كل حال، فيكون شُغْل المرء بربه إذا ما عَرضتْ له حاجة أو لم تَعرِض، فلا يَسكُن قلبُه إلا باللجوء إلى الله"، فلا بد من اجتماع القلب والهمة على تَدبُّر هذا الدعاء وتَفهُّمه، فكلما دعا به العبد استشعر عظمتَه، ولامَس شَغَاف قلبه، فيشعُر بلذته؛ لأن من فَهِم شيئًا فُتحت له لذة مناجاته.

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر: من أعظم وسائل الثبات.. توحيد الله.

الثبات: هو الاستقامة والسير في طريق الهدى، حتى يلقى المسلمُ ربَّه ثابتًا على دينه وعقيدته وشَرْعه، ثابتًا على أمر ربه وعلى سُنَّة نبيه، كثبوت شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لا تَهُزها ريحٌ ولا يَثنيها إعصار، ثبات على منهج الاستقامة، وعلى الحق الذي عمَر قلبه، فانعكس على جوارحه، ثبات على فِعْل الأوامر، واجتناب النواهي؛ فالله - عز وجل - يقول في كتابه: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء: 66]، بمعنى لو أن الناس فعلوا ما يُوعَظون به من الأوامر، وابتعدوا عن النواهي، وصدَّقوا بالأخبار وتَمسَّكوا بالقرآن وعمِلوا بالسنة.

{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا}: ما يُوجَّه إليهم من توجيه إلهي في القرآن أو عن طريق السنة، لكان خيرًا لهم وثباتًا على دين الله؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم يسأل الله الثباتَ إذا عمَّت الفتنُ وماجت، وعدم الولوج في الشبهات المضللة، ويسأله ثباتًا أمام المِحَن، ويسأله ثباتَ قلبه من التقلب والتحول والانحدار إلى مزالق الهوى والشبهات، وقد كان أكثر دعائه: ((اللهم يا مُقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك))، فإذا كان سيد الهداة صلى الله عليه وسلم يسأل الله الثباتَ، فنحن أولى بالسؤال منه، فإذا ثبت المؤمن في هذه الحياة الدنيا، وصدَق مع ربه، واجتنب مواضعَ الريب، لا شك أن الله الكريم الذي لا يَظلِم أحدًا، ولا يَضيع عنده عملُ عامل من ذَكَر أو أنثى، فإنه سيُكرِمه بالثبات عند سكرات الموت بالخاتمة الحسنة، ويُثبِّته في القبر عند سؤال المَلَكين للجواب الحق، إذا قيل له: مَن ربك؟ قال: ربي الله، وإذا قيل له: ما دينك؟ قال: ديني الإسلام، وإذا قيل له: من نبيك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، وهداه الله وأرشده ووفَّقه وسدَّده، فإن كان البعض يرى أنها أسئلة يسيرة، وإجابتها أيسر قد يُجيب عليها طفل، لكنها ليست يسيرة إلا على مَن ثبَّته

الله على دينه، وليس كل أحد يُوفَّق لها؛ ولهذا يجب أن تكون هذه الآية ضِمْن دعائنا اليومي: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: 8].

ثبات على الصراط: فذلك قول الله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [إبراهيم: 27].

التوحيد من أعظم أسباب الثبات على دين الله، رُوي عن ابن مسعود أنه كان يَحلِف بالله "إن الصراط المستقيم هو الذي ثبت عليه عمر حتى دخل الجنة"، نسأل الله الثباتَ؛ فهذا حديث تفزع له القلوب.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بادِروا بالأعمال الصالحة، فستكون فِتَن كقِطَع الليل المظلِم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا))؛ رواه مسلم.

وهذه إشارة إلى تَتابُع الفتن المضِلَّة آخر الزمان، وكلما انقضت فتنة أعقبتها فتنة أخرى، وها نحن نعيش - والله - فتنًا تجعل الحليمَ حيرانَ، ففي كل يوم لنا حادثة نصيح منها، وما نَلبَث أن ننساها حتى تأتي التي تليها.

ها نحن نعيش القَلَقَ على أمتنا وأنفسنا وأبنائنا، فما أحوجنا للابتهال بين يدي رب العزة والجلال أن يُثبِّتنا ويتولانا بفضله، ولا يَكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين!

والناس في رحلة هذه الحياة الفانية دار الابتلاء والامتحان، وجب عليهم أن يَسلُكوا الطريقَ المستقيم، وكُلِّفوا بأن يَثبُتوا عليه؛ لأنه لا محالة ستأتي حياة بعدها، وهي حياة الحساب والجزاء والفوز بجنة عَرْضها السموات والأرض، أُعِدَّت للذين استجابوا لله وللرسول، وساروا على الطريق الذي رسمه الله لهم، حتى نالوا الفوزَ والرضا، فسبحان مَن يُثبِّت طائفة استحقَّت التثبيت بمبادراتها، ويُضِل أخرى بانحرافها، وزيغها، فاللهم اجعلنا من أهل الثبات في الدنيا والآخرة، يا من قلت - سبحانك -: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [إبراهيم: 27].

والعزيمة على الرُّشد:

العزيمة لغة: القَصْد المؤَكَّد، وعزم على الأمر يَعزِم عزمًا، والعزيمة شرعًا: حُكْم ثابت بدليل شرعي خالٍ عن مُعارِض راجح، وقيل في تعريفها: إنها الحُكْم الثابت من غير مخالفة دليل شرعي؛ قال تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران: 159]، وقوله - سبحانه -: {وَإِنْ تَصْبِرُوا



وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186]، وكذلك في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: 35]، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى؛ فهم سادات الخَلْق، وأولو العزائم والهِمَم العالية.

ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله يحب أن تؤتى رُخَصُه، كما يَكْره أن تؤتى معصيته))، وهذا حديث مشهور عن جماعة من الصحابة، وقد رواه الإمام أحمد وغيره، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث لفظ حديث ابن عباس، وقريب منه حديث ابن مسعود: ((إن الله يحب أن تؤتى رُخَصه كما يحب أن تؤتى عزائمه))، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال لأبي بكر: ((متى تُوتِر؟))، فقال: من أول الليل، وقال لعمر: ((متى توتر؟))، فقال: من آخر الليل، فقال لأبي بكر: ((أخذت بالحزم))، وقال لعمر: ((أخذتَ بالعَزْم))؛ روي مرفوعًا.

فمتى وُفِّق العبد إلى هِبة العزيمة، وصارت مُلازِمة له، فلا يجد تَعَبَ التكاليف ومشقة العمل، وزال عنه الفتور والكسل الذي حَرَم الكثيرين من القيام بالواجبات، فضلاً عن النوافل، فإذا أنعم الله عليه بالعزيمة الصادقة صارت الصلاةُ قرَّة عينه، والصوم خشوعًا لجوارحه وبدنه، والذِّكر طمأنينة لقلبه، وهنا لا بد من صِدْق العزيمة بالإخلاص ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذْل الجهد في امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، والاستعداد للقاء الله، وتَرْك التكاسل عن الطاعة، وإلزام النَّفْس بلجام التقوى عن محارم الله، والتمسك بذكره الذي يكون له عونًا على طرْد الشيطان، ومحاولة الاستقامة على ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

على الرشد: الرُّشد في اللغة: الاستقامة على الطريق، والاستقامة درجة عالية تَدل على كمال الإيمان، وعُلو الهمة المرشدة إلى حُسْن المسلك وحُسْن التصرف، بأن يتصرَّف الإنسان تصرُّفًا يُحمَد عليه، وذلك بأن يَسلُك الطريق، طريق الهدى والسداد والتوفيق الذي به سلامته ونجاته، والذي يُوصِله إلى دار كرامته ورِضوانه، وقد ورد الرُّشد في مقابل الغي في موضعين:

قوله تعالى: {قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: 256].

وقوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} [الأعراف: 146].

والراشد: هو الذي عرَف الحقَّ واتَّبعه وتَمسَّك به، وصار مُلازِمًا له محقِّقًا لعبودية ربه، مُتَّبِعًا لكل خير، مُتجنِّبًا لكل شر، سائرًا مستقيمًا على العمل الصالح، مُنفِّذًا لأمر ربه بقوله تعالى: {فَاسْتَقِمْ

كَمَا أُمِرْتَ} [هود: 112]؛ قال ابن كثير: يأمر الله تعالى رسولَه والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وقال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت أشدَّ ولا أشقَّ عليه من هذه الآية؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين قالوا: أَسرَع إليكَ الشيبُ فقال: ((شيَّبتني هود وأخواتها))، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "الاستقامة أن تقوم على الأمر والنهي، ولا تروغ عنه رَوَغان الثعلب".

وأسألك شكر نعمتك:

الشكر: فضيلة عظيمة، وهو الثناء الحَسَن على المنعِم، وهو أجلُّ المنازل التي تتحقَّق بها العبودية، وقيل: إظهار النعمة والعِرْفان بها، وعرَّفه ابن القيم في منازل السائرين: "معاني الشكر ثلاثة أشياء: معرفة النعمة، ثم قَبُول النعمة، ثم الثناء بها"، وقد أمر الله عبادَه بالشكر، وهو غني عنهم، ولا يحتاج إليهم، ولكن ليَزيدهم من فضله وإحسانه وليُثبِّت لهم النِّعمَ.

وفي كتاب ربنا وردت كثير من الآيات للحثِّ على الشكر:

قال تعالى: {وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [النحل: 114]، وقال تعالى: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ} [النمل: 19].

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم سيد الشاكرين؛ حيث كان يُكثِر من العبادة والتهجد في الليل، يقوم يصلي حتى تتورَّم قدماه أو ساقاه، فيقال له في ذلك؛ فيقول: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا))؛ أخرجه البخاري في صحيحه.

وفي بيان أن أهله هم القليل من عباده؛ لعِظَم النِّعم، حتى ليَقِل القادرون على شُكْرها، فلو أفنوا أعمارَهم في شُكْر المنعِم ما وفوا شكر نعمة واحدة من نعم الله التي تترا عليهم.

قال فضيل في قوله تعالى) اعملوا آل داود شكرا) .)فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟

قال: " الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني" .تفسير ابن كثير.

وقد امتدح خليلَه إبراهيم بقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ} [النحل: 120، 121]، وقد كان أنبياء الله أشد الناس اجتهادًا في العبادة مع دأبهم على شُكْره، ووصف الله به خواصَّ خَلْقه، فقال عن نوح - عليه السلام -: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: 3]، وفي قوله تعالى: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: 7]؛ دليل على رضا الله عن عباده الشاكرين، فمن تمام نِعمته محبته له على هذا الشكر ورضاه منه به، وهذا غاية الكرم أن يُنعِم عليك، ثم يُوزِعَك شُكْرَ النعمة.

وكذلك في السُّنة؛ قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ: ((والله يا معاذ، إني لأُحبُّك، فلا تنسَ أن تقول في دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذِكْرك وشكرك وحُسْن عبادتك)).

وفي قوله تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ} [العنكبوت: 17]؛ فبالشكر تكون الزيادة والمباركة لنِعَم الله، فإذا لم يشكر المؤمن ربَّه، فقد عرَّض النعمة للزوال، وقد قيل: النعمة إذا شُكِرت قَرَّتْ، وإذا كُفِرت فَرَّت، وكذلك بالشكر تكون الزيادة، ويدل على ذلك قوله تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: 7]، فمن شكا نقصًا في حاله، فليُكثِر من شكر الله تعالى.

يقول العتابي:

الشكرُ يفتح أبوابًا مُغلَّقة= لله فيها على مَن رامه نِعَمُ

فبادر الشكرَ واستغلِق وثائقَه = واستدفع اللهَ ما تَجري به النِّقَمُ

والشكر حافظ للنعمة وحارس لها من الزوال ومقيّد لها، فقوم سبأ عندما أعرضوا عن شُكْر الله سلَبهم الرخاءَ والنِّعمَ التي كانت تَغمُرهم؛ قال تعالى: [{فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} [سبأ: 16]]

فأرسلنا عليهم سيل العرم و (العرم) فيما روي عن ابن عباس: السد. وقال عطاء العرم: اسم الوادي وادي سبأ ; كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية، قيل من البحر وأودية اليمن ; فردموا ردما بين جبلين وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قدر حاجاتهم ; فأخصبوا وكثرت أموالهم، فلما كذبوا الرسل سلط الله عليهم الفأر فنقب الردم. قال وهب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرة ; فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عن الصخرة ودخلت في الفرجة

التي كانت عندها ونقبت السد حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون ; فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم (تفسير القرطبي).

وبالشكر والإيمان ينجو العبدُ من عذاب الله؛ قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ} [النساء: 147]، وتمام حقيقة الشكر هو الاستعانة على مرضاة الله، وقد كتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية رضي الله عنه: "إن أقل ما يجب للمُنعِم على مَن أنعم عليه: ألا يجعل ما أنعم عليه سبيلاً إلى معصيته".

يقول ابن القيم رحمه الله في (مدارج السالكين (2: 246): "والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألا يَستعمِلها فيما يكره؛ فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناؤُه عليها، فمتى عَدِم منها واحدة، اختلَّ من قواعد الشكر قاعدة".

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم - رحمه الله -: "الشكر يأخُذ بجزم الحمد وأصله وفرعه، فلينظر في نِعَم الله في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك، ليس من هذا شيء إلا ومنه نعمة من الله، حق على العبد أن يعمل بالنِّعم التي هي في بدنه لله - جل وعلا - في طاعته، ونِعَم أخرى في الرزق حقٌّ على العبد أن يعمل لله فيما أنعم به عليه من الرزق في طاعته، فمن عمِل بهذا، فقد أخذ بجزم الشكر وأصله وفرعه"؛ الشكر لابن أبي الدنيا.

وقيل لأحد العلماء: كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحت بين نعمتين، لا أدري أيتهما أشكر: ذنوب ستَرها الله - عز وجل - عليَّ، فلا يُعيّرني بها أحد، ومحبة قذَفها الله - عز وجل - في قلوب العباد.

وما أحسن قوله تعالى: "{وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} [لقمان: 12]! فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وآخرة، وإن كان لا يحسن مقابلة المنعم به، ولا يستطيع شُكْره، فإنه إنما هو مُحسِن إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافئ به لنِعَم الرب؛ فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئ نِعَمه أبدًا، ولا أقلها، ولا أدنى من نعمه، فإنه هو تعالى المنعم المتفضِّل الخالق للشكر والشاكر، وما يُشكَر عليه، فلا يستطيع أحد أن يُحصي ثناء عليه، فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه



بأن أوزَعه شُكرَها، فشُكْره نعمة من الله، أَنعَم بها عليه، تحتاج إلى شُكْر آخر، وهلم جرًّا"؛ مدارج السالكين (242).

نعمتك: ما أجلَّ نِعَم الخالق! فلو أردنا أن نُحصي نِعمَه – سبحانه – علينا ما استطعنا لها جمعًا، ولا أحصينا لها عددًا، فهي سلاسل ممتدة تُغطِّينا من رؤوسنا إلى أَخْمَص أقدامنا، نِعم حسيَّة ومعنوية تَكتنِفنا ليل نهار، يُقلِّب المؤمنُ نظرَه فيها، ففي كل طرفة عين نعمة؛ {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل: 18]"

قال الطبري رحمه الله–: "وإن تعدوا أيها الناس نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عددها، والقيام بشكرها إلا بعون الله لكم عليها، وقال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين، وأمسوا توابين".

فالنعم التي أغدقها علينا مالك الملك بفضله، نِعَم تترى، ومن أعظم النِّعم التي امتنَّ الله بها علينا نعمة إتمام هذا الدين؛ لقوله تعالى: {وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [المائدة: 3]، فنعمة الإسلام التي يَمُن الله علينا بها هي من أجلِّ النِّعم بعد نعمة الخَلْق، وليس لنا فيها يد، بل فطَرنا على هذا الدين القويم، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس، ولم يجعلنا من أمة وثنيَّة أو مذاهب مُتعسِّفة.

نعمة الإسلام والإيمان: حيث ارتضى لنا هذا الدينَ وجعلنا من أهله وأورثنا حياةً طيبة آمنة آنسة به؛ ففي قوله تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3]، رضي الله تعالى هذا الدينَ لنفسه ورضيه لعباده، وارتضاه لهذه الأمة، فرِضاه عمن أخذ بهذا الإسلام، ورضاه عمن استقام عليه، فأهله مرضيٌّ عنهم، اللهم فاجعلنا ممن قُلْت فيهم: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: 119].

ونعمة العبودية الحقة أن عبَّدنا له ودلَّنا عليه، وفطَرنا على الإقرار بربوبيَّته، وأن عبَّد قلوبنا وألسنتَنا وجوارحنا له، وحرَّر عقولَنا من قيود الماديات، وجعل قلوبنا مطمئنة وعقولنا تُقِر بألوهيَّته.

نعمة الهداية والتوفيق والإرشاد، نعمة القرآن الذي بين أيدينا نتلوه، ونحن نعلَمُ ونؤمن أنه كلام ربنا العظيم، كتاب مُبارَك فيه خير الدنيا والآخرة نتنعَّم بتِلاوته، ونهتدي بهديه، فيه البركة والنماء

والزيادة، ويشهد على ذلك قوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: 29].

وقد مَنَّ الله علينا أن أنزله بلسان عربي مبين؛ قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 193 - 195].

نعمة العقل: ويتفرَّع منه نِعَم جَمَّة، ومنها نعمة التوحيد والإقرار برب خالق واحد الذي يدبِّر ويرزق، ويحيي ويميت، ليس له شريك في مُلْكه، وليس له مثيل في وصْفه، فلم ننحدر إلى سخافة الشرك من عبادة حجر، أو تبرُّك بشجرة، أو طواف بقبر، أو توسُّل بنبي صالح.

نِعمة العلم: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: 31]، فضلنا – سبحانه – على الملائكة بالعلم.

نعمة الرسول المصطفى، الذي جعلنا الله من أمته، آمنَّا به وصدَّقناه، واتبعناه ومَنَّ علينا بأن أنزل محبَّتَه في قلوبنا اتباعًا لصحبه ولسلفنا الصالح، ففي محبتهم له صلى الله عليه وسلم يُجيب علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن سؤال نصه: كيف كان حبُّكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟" فيُجيب بقوله: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: ما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنتُ أُطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصِفه ما أَطقتُ؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه.

نعمة تنوُّع العبادات؛ ليتلذَّذ بها المؤمن، فلا يكون على طريقة واحدة، فيُصيبه الملل، ما بين سجود وركوع، وتسبيح وتكبير، وشهر رمضان وما فيه من الصيام والقيام والتلذُّذ بالمناجاة والدعاء وليلة القدر ومضاعفة الأجور فيه، ونعمة الحج وما فيه من عظيم النُّسُك.

نعمة الرزق الحلال: الذي يُعين على صلاح الدنيا، والدين، الرزق الذي تكفل الله به قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: 6].

وفي قول الله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: 24 - 31]، هذا حُلْو وهذا مر، وهذا ليس له طَعْم، وهذا طري وناعم، وذاك قاسٍ وخَشِن، فسبحان الخلاق المبدِع!

نعمة الخَلْق، وهذه النَّفس التي بين جنبينا، خلقها - سبحانه - وصوَّرها في أحسن تقويم، فإذا تَفكَّر الإنسان في نفسه، وما يَملِك من دقة متناهية مُنتظِمة، امتثالاً لأمر الله - عز وجل -: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 21]؛ التبيان في اقسام القرآن.

نعمة الحواس التي منحنا الله إيَّاها لنتجاوب مع الكون، ونتذوَّق ما فيه من بديع صُنْع الله.

نعمة البصر: الذي نتمتَّع بسببِه برؤية إبداع الله في الكون؛ تأمَّل قوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [الغاشية: 17]، فكم ممن حُرِم هذه النعمة فلا يرى شيئًا مما خلقه الله من الجمال على الأرض، فلا يرى السماء ولا الجبال ولا الحيوانات، بل ولا والديه وهم أقرب الناس له.

نعمة السمع: ولا يعرف عِظمَها إلا مَن فقَدها؛ فهي تُصاحِب الإنسان منذ الولادة، ولولاها لما تعلَّم النُّطقَ، ولا فَقه شيئًا، فلتنظر إلى قول الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78].

نعمة المخلوقات: التي سخَّرها الله لنا في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} [يس: 71].

نعمة الأمن والأمان: وهي نعمة تفضَّل الله بها علينا من بين آلاف المسلمين؛ نعمة العيش في بلاد الحرمين، وتلك نعمة من أعظم النعم، ونِعَم أخرى تتوالى، بل ربما تكون هناك أشياء عظيمة النفع قد خفيت عنا.

فهل يَخطُر على بالك بأن الريق نعمة، معنى الريق: السائل الذي يساعد على مضْغ الطعام؛ فلقد أخبرتني إحدى الأخوات، أن لها صديقة قد فقدت الريقَ، فلا بد لها أن تشرب الماء كل نصف ساعة، فلو قدَّر الله لها أنها نامت أكثر من ساعة، يُغلَق فمُها، ولا تستطيع أن تفتحه لشدة الجفاف، وحينها لا بد من نقلها إلى المستشفى في حالة طوارئ، ليُسكَب داخل فمها أنابيب ورشاشات مائية لإنقاذها.

فاللهم لك الحمد على ما يَجري في أوصالنا من عافية، هي من مِنَّتك وفضلك، ليس لنا فيها جهد، نَعجِز ربنا عن حمدك وشكرك، اللهم نسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

وآخر النِّعم وأعظمها، لا حرمنا الله منها: العودة إلى الجنة والتقلب في لذات النعيم الذي لا يُساويه نعيم، فلا سَقَم ولا هَرَم ولا موت ولا حَزَن ولا غِل؛ {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [الواقعة: 25، 26].



نعمة الخلود في دار الراحة: جعلنا الله من أهلها، ومن الذين لا يسمعون حسيس النار، ولا يَحزُنهم الفزع الأكبر، الجنة! التي أعدَّها الله لعباده المتقين المؤمنين؛ يقول – سبحانه –: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ} [يس: 55]، {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} [الصافات: 45 - 47]

لا فيها غول {يعني وجع البطن قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد كما تفعله خمر الدنيا، وقيل: المراد بالغول ههنا صداع الرأس، وروي عن ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن؛ وقال السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا ** وتذهب بالأول الأول.

وقال سعيد بن جبير: "لا مكروه فيها ولا أذى"، والصحيح قول مجاهد: "أنه وجع البطن ولا هم عنها ينزفون" {قال مجاهد: لا تذهب عقولهم وكذا قال ابن عباس والحسن وعطاء والسدي، وقال ابن عباس: "في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة، فنّزهها عن هذه الخصال" (ابن كثير).

ويقول – سبحانه –: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأحقاف: 13]، ثم لذَّة النظر إلى وجه الرب الرحيم، وتلك نِعمة وبِشارة أعظم من لذة الجنة؛ {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26]

ورد في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا، يريد أن يُنجِزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يُبيّض وجوهَنا، ويُثقّل موازيننا، ويُدخلنا الجنة، ويُجِرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فيَنظُرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه))؛ أخرجه مسلم.

فبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم مع كمال تَنعُّمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يُعطِهم شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم؛ لأن ما يَحصُل لهم به اللذة والنعيم والفرح والسرور وقُرَّة العين، فوق ما يَحصُل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعمتين البتة" [إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان]"؛ لابن القيم.

وفي قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} [القيامة: 22]؛ أي: وجوه أهل السعادة يوم القيامة مُشرِقة حسَنة ناعمة، ترى خالقها، ومالك أمرها فتتمتَّع بذلك"؛ التفسير الميسر.



وحسن عبادتك:

إحسان الشيء: إجادته، وبدايته حُسْن الإسلام، وفي ذلك يقول ابن رجب رحمه الله: "وإذا حَسُن الإسلام اقتضى ترْك ما لا يعني كله؛ من المحرَّمات والمشتبهات، والمكروهات، وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها، فإن هذا كله لا يَعني المسلمَ إذا كمل إسلامُه، وبلغ درجة الإحسان".

حسن العبادة: بذْل الجهد في التزام ما يحبه الله ويرضاه مما أمر به رسوله، والبُعد عما يُسخِطه، وقد بيَّن ابن القيم ذلك بقوله: "مدار الدين على النُّصح في العبودية، وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب، المرضي عنه".

حسن العبادة: في الخضوع للرب ظاهرًا أو باطنًا، وموالاة مَن أطاعه ومعاداة من عصاه، والاعتراف بنِعَمه وشُكْره عليها وتحقيق الإيمان.

فعن صالح بن مسمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحارث بن مالك الأنصاري: ((كيف أنت؟ أو ما أنت يا حارث؟))، قال: مؤمن يا رسول الله، قال: ((مؤمن حقًّا؟))، قال: مؤمن حقًّا، قال: ((لكل حق حقيقته، فما حقيقة ذلك؟))، قال: عزَفتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي - عز وجل - وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أسمع عُواء أهل النار، فقال رسول الله: ((مؤمن نوَّر الله قلبَه))؛ أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: 106).

حسن العبادة: اتباع سنة محمد صلى الله عليه وسلم، وترْك البِدَع كبيرها وصغيرها، واقتداء بالمصطفى عليه الصلاة والسلام في هديه اقتداء رضا ومحبة، ودعاء رب البريات أن يتوفَّانا على مِلَّته، رجاء نيل شفاعته وورود حوضه.

حسن العبادة: المحافظة على الصلوات الخمس بمواقيتها وخشوعها، وعدم التفريط فيها، والإكثار من النوافل للوصول لتلك اللذَّة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيها: ((وجُعِلت قرة عيني في الصلاة))، حُسْن التعبُّد قوة للمؤمن تجعل حياتَه كلها خاضعة لله - عز وجل - لا تَشغَله الحياة بمطالبها المادية ولا بلَغْوها العارض، يتنعَّم باللذة التي كان يَتنعَّم بها سيد المرسلين، عندما كان يقول لعائشة رضي الله عنها: ((دعيني أتعبَّد ربي))، وكان يقول لبلال: ((أرحنا بالصلاة))، وكذلك الإخلاص في القول والعمل، وذكر الله والاعتناء بكتابه تِلاوة وحفظًا وتدبرًا؛ فإنه يديم إيصال الخَلْق بالخالق.

حسن العبادة: مُرتَبِط بحُسْن القول، وحُسْن النُّصح وحُسْن الأعمال الصالحة التي تَصِل بالمؤمن إلى التميز والانشراح واليقين الذي يَنبعِث من القلب، ويحيا في النفس حياة قويَّة راسخة في ظل العبادة والخشوع.

حسن العبادة: ترْك الذنوب ومجانبتها وعدم الإصرار عليها، فالمؤمن ليس معصومًا، ولكن الله جعل له مخرجًا بالتوبة والاستغفار.

لذة العبادة التي جعلت من سلفنا الصالح، رهبانًا بالليل فرسانًا بالنهار، فهذا عبدالله بن المبارك رضي الله عنه ورحِمه إمام من أئمة التابعين، وعالم من العلماء المحدِّثين، كان يحج عامًا ويغزو عامًا، تلك عباداتهم التي حَسُنتْ وتنوَّعت، ففي كل عبادة شوق ولذة وإحسان، وصِلة عظيمة بالخالق، صلة العبودية بالربوبية والألوهية.

وهذا عطاء بن رباح الذي اتخذ من البيت الحرام مقامًا له، وكأنه داره التي يأوي إليها ومدرسته التي يتعلَّم منها ويُعلِّم فيها حتى بلغ مائة عام ملأها بالبِرّ والتقوى والوَرَع والعلم والزهد، حج خلالها سبعين مرة، وقد قال عنه المؤرخون: "كان المسجد الحرام فراش عطاء بن رباح نحوًا من عشرين عامًا".

فإذا أحسن المؤمن عبادتَه أكثر من الأعمال الصالحة، ودوَام الذِّكر والفِكرَ الذي يُورِث قوة الإيمان وزيادة اليقين.

وقد أخبر - سبحانه - أن من صفات المؤمنين أنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم؛ كما قال - سبحانه -: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: 191].

ومنها محاسن الأعمال، فحُسْن التعبُّد يدعو المؤمنَ إلى حُسْن العمل والتعامل؛ حيث الصدق والنصح والتحلي بمكارم الأخلاق، وبهذا يَكمُل إيمانه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا)).

ونحن هنا نسأل الله حُسْن عبادته، ولكن هل نرى نحن أن عبادتنا وصلت للحُسْن والإتقان والتحقيق، فهذا ليس من شأننا، بل يَظل المؤمن دائمًا مُعتَرِفًا بجهله وتقصيره، فهذا قول ناصح للشيخ أبي مدين: "مَن تَحقَّق بالعبودية نظر أفعالَه بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء".

وكلما عَظُم المطلوب في قلبك صَغُرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذُلها في تحصيله، وكلما شهِدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبيَّن لك أن ما معك من البضاعة لا يَصلُح للمَلِك الحق، ولو جئتَ بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضُّله، ويُثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله"؛ مدارج السالكين (1/ 194).

سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك ولا شكرناك حق شكرك! فنسألك يا رب العالمين ويا حبيب الصالحين أن تقبل منا القليل من العمل، وتتجاوَز عنا الكثير من الزلل، وأن تُعامِلنا بما هو أنت أهل له، ولا تُعامِلنا بما هو نحن أهل له، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة، وارزقنا توحيدًا لا يشوبه شرك، ومعرفة لا يُخالِطها إنكار.

وأسألك لسانًا صادقًا:

قال عبدالرحمن بن زيد: "الصدق الوفاء لله بالعمل"، وقيل: استواء السرِّ بالعلانية، وهذا يعني أن الكاذب علانيته خير من سريرته، كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه، وقيل: الصادق مَن يَصدُق في أفعاله صِدْقه في أقواله.

وقال ثابت بن قرة: الصدق ربيع القلب، وزكاة الخلقة، وثمرة المروءة، وشعاع الضمير، وقد امتدح الله عباده المؤمنين الصادقين في أكثر من موضِع في كتابه الكريم، وجاءت معظمها على سبيل المسألة والدعاء.

وأسألك لسانًا صادقًا: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [الشعراء: 84].

وسؤال الله الصدق: هو تحري الصدق في الأقوال كلها، فالصدق من كمال الأخلاق ومن أعظم الفضائل، واعتياد الصدق يؤدي إلى البِرِّ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: ((عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البِرِّ، وإن البر يهدي إلى الجنة))، وأن يستعين بالله أن يَهَبه لسانًا صادقًا يدخل به في صِنْف الأبرار؛ روى الإمام مالك في الموطأ عن صفوان بن سليم قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: ((نعم))، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: ((نعم))، فقيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ قال: ((لا)).

ففي هذا الحديث حكمة عظيمة؛ لأن الكَذِب يَندرِج تحته أمور عظيمة من القبائح، ولو تأمَّلتَ ما يَحدُث في العالم من وسائل الإعلام الحديثة والشبكة العنكبوتية، وسرعة ما يُبَث فيها من الكَذِب الذي يَبلُغ الآفاق، وتتبَّعت ما تَعِج به من الافتراء والنفاق والتزوير لرأيت عجبًا.

وقد قسَّم الله – سبحانه – الناسَ إلى صادق ومُنافق؛ فقال: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [الأحزاب: 24].

وهنا يَحرِص المؤمن على سؤال خالقه أن يُعينه على سلوك طريق الحق، وأن يهديه إلى سلوك الصدق، حتى يكون ملازمًا له يتحرَّى الصدقَ ويُراقِب خطرات لسانه، ولا يُلقي الكلام جزافًا دون تروٍّ، حتى تَصِل به الظنون أنه ليس مُراقبًا ولا مُحاسبًا، ويسير خلف هوى النَّفْس ولا يجد حرجًا في نفسه من أن يتلاعب لإقناع الآخرين بكَذِبه وافترائه، وهذا يدل على أن الإنسان المسلم عندما يكون دائم التعلق بالله يشعر بقُرْبه، فيَطلُب منه أن يُصلِح أحوالَه حتى يرتقي إلى منازل الأبرار الصادقين.

فصدق بالقلب وصدق بالأفعال، سواء بينه وبين ربه أو بينه وبين الخَلْق، ولا شك أن المسلم المطيع لربه قريبٌ منه يَهَبه الله بفضله أن يحشره في زمرة الصديقين، وينال ثوابَ الصديقين؛ قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69].

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسَه إلى السماء وقال: "اللهم إني أعوذ بك أن أَخرُج مُخرَجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك"، بمعنى ألا يكون مخرجه إلا صِدقًا، فيكون دخوله وخروجه مبنيًّا على الصدق والإخلاص الذي يزول به كل شُبْهة، بأن يكون مخرجه لله، وبالله وابتغاء مرضاته واجتناب سَخَطه وغضبه.

وأمر الله عبادَه أن يتَّقوه ويكونوا مع الصادقين، قال – عز من قائل –: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119]، وقد كانت قصة كعب بن مالك من أجمل قصص الصِّدق، فالتزام الصدق يُوصِل إلى التحقق من مرتبة التقوى، ثم يرتقي به إلى مرتبة البِرّ، فيكون الصدق خُلُقًا ثابتًا له، حتى يُكتَب عند الله صدِّيقًا، ولا بد للمؤمن أن يَصدُق بقلبه فلا يُخالِف ظاهره باطنه، فإذا صدق باطنه صدق ظاهره، فيكون الصدق يتخلَّل شعابه كلها.

والكذوب: جاحد للحق حتى لو تبيَّن له، ويُنكِر الحقَّ ويدَّعي خلافه، وما أهونه عليه! حيث تلبَّس بخُلُق الكذب حتى صار أصلاً له، فلا يُحقِّق مطالبَه ورغباته وشهواته إلا بأكاذيبه، بل ويحلو له ويستمرئه ويعتاده.

المؤمن الذي يُبصِر حقيقةَ الصدق في كل ما يَمَسه ويمس غيره، يرفعه ذلك إلى القمة التي تَصِل به إلى اليقين، فتكون حياته كلها دائرة في قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء: 80].

يقول ابن القيم في الفوائد: "إياك والكذب؛ فإنه يُفسِد عليك تَصوُّر المعلومات على ما هي عليه، ويُفسِد عليك تصويرَها وتعليمها للناس... ونَفْس الكاذب مُعرِضة عن الحقيقة الموجودة، نزَّاعة إلى العدم، مُؤثِرة للباطل.

ثم يقول: وأَوَّل ما يَسري الكذب من النَّفْس إلى اللسان فيُفسِده، ثم يسري إلى الجوارح فيُفسِد عليها أعمالَها، كما أفسد على اللسان أقواله، ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عملٍ فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكَذِب"؛ انتهى كلامه.

فاللهم اجعلنا من الصادقين المصدقين في القول والعمل، ووفِّقنا لما تُحِب وترضى، فلا عونَ لنا سواك، اللهم اجعلنا من الصادقين الذين يتنعَّمون بوعدك الحق؛ {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: 122]، اجعلنا ممن يقولون: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر: 74].

وقلبًا سليمًا:

الله.. الله في القلب! فعليه مدار الأعمال وصفاؤها ونقاؤها؛ {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 89].

القلب السليم: هو القلب الذي سَلِم من الشرك والشك، وقد ضرب الله لنا مثلاً عظيمًا في كتابه عن نوره الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين

قال الله تعالى:

{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: 35]:



"{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لُطْفه، لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة، وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشَرْعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور، فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا: كل محل يفقد نوره فثم الظلمة والحصر، {مَثَلُ نُورِهِ} الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، {كَمِشْكَاةٍ} أي: كوَّة {فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ}؛ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرَّق ذلك {الْمِصْبَاحُ، فِي زُجَاجَةٍ} من صفائها وبهائها {كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ}؛ أي: مضيء إضاءة الدُّر، {يُوقَدُ} ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية {مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ}؛ أي: يُوقَد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون، {لَا شَرْقِيَّةٍ} فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، {وَلَا غَرْبِيَّةٍ} فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتَحسُن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: {يَكَادُ زَيْتُهَا} من صفائه {يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ}، فإذا مسَّته النار، أضاء إضاءة بليغة {نُورٌ عَلَى نُورٍ} أي: نور النار، ونور الزيت.

ووجه هذا المَثَل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فُطِر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مُستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفَهْم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدُّرِّيَّة، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يَصلُح له ذلك، قال: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ} ممن يعلم زكاءه وطهارته، وأنه يزكَّى معه وينمو، {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ} ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفًا منه بهم، وإحسانًا إليهم، وليتَّضِح الحق من الباطل، فإن الأمثال تُقرِّب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علمًا واضحًا، {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فعِلْمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبُّرها وتعقُّلها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون"؛ تفسير السعدي - تيسير الكريم الرحمن (ص: 568).



القلب الطاهر: الذي سَلِم من كل خُبْث، وصفا من البدع والإصرار على الذنوب، وخلص من شوائب الكِبْر والحسد والحقد، وزُيِّن بالإخلاص والمحبة واليقين، ومال إلى كل حسنٍ، وسلِم من كل قبيح، وقد كُتِب عن القلوب مجلدات لا حصر لها، وذكَر لنا المصطفى عليه الصلاة والسلام في حديث يُبيِّن أهميةَ القلب: ((إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم))، ولو أردنا أن نُبيِّن القلبَ السليم لضاقت الصفحات، ولطال بنا المقام، ولكنا سَنَذْكُر بعضًا مما قيل فيه، عسى الله أن يجعلنا نلقاه بقلوب سليمة صافية ذاكرة نابضة بحبه وذِكره، مُنشرِحة بقضائه وقَدَره، ذليلة لعزته وجبروته، خافقة بحمده وشكره، قلوب تملؤها السكينة والرضا، تُحِب فيه، وتُبغِض فيه، وتسير بنا في نهجه وطريقه المستقيم، فالقلب هو مقر النعيم والسعادة والسرور.

وهو مقر المحبة، والمحبة: تعلُّق القلب بالمحبوب. يقول ابن تيمية:

وأخرج من بين البيوت لعلني *** أحدث عنك القلب بالسر خالياً

كلما عرض أمر من الرب سبحانه قال القلب ناطقاً لبيك وسعديك ولك المنة في ذلك والحمد عائد إليك.

المحبة: تنبع من القلب وتسقيه بنور الإيمان، وتوحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب مقره القلب، وسقوط كل محبة من القلب إلا محبة الكريم العزيز.

جرت مسألة المحبة في مكة أيام المواسم – فتكلم فيها الشيوخ وكان الجنيد أصغرهم سناً. فقالوا هات ما عندك يا عراقي. فاطرق رأسه، ودمعت عيناه ثم قال: "عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه ثم قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرقت قلبه أنوار هيبته وصفا شربه من كاس وده وانكشف له الجبار من أستار غيبته فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكت فمع الله فهو بالله ولله ومع الله" فبكى الشيوخ وقالوا ما على هذا مزيد جزاك الله خير يا تاج العارفين.

والقلب مقر التقوى:



وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: ((التقوى ها هنا، وأشار إلى صدره))؛ أخرجه مسلم، فالتقوى تقوى القلوب، لا تقوى الجوارح، وفي المسند مرفوعًا: ((فالإسلام علانية، والإيمان في القلب))؛ رواه أحمد، فتحقيق أعمال القلوب والاهتمام بصلاحها هو تحقيق لعبودية المحبة والرجاء والخوف والتوكل والإنابة، ولا يُعظِّم شعائرَ الله إلا أصحاب القلوب التقية، كما قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: 32].

والقلب مقرُّ الإخلاص الذي هو مقتضى الإيمان، وما تُوزَن الأعمال إلا بإخلاص القلب الذي يَهدي المؤمنَ، ويدفعه إلى السلوك المستقيم ويحميه من العثرات؛ كما قال ابن المقفع: "المؤمن بخير ما لم يَعثُر، فإذا عثَر لجَّ به العثار"، ومعنى لج: تمادى أو أصرَّ، وهو موطن الخشوع، ويدل على ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: 16]، وذلك يدل على أن القرآن له أصلٌ على لين القلب ورقَّته وخشوعه.

ومن القلوب ما يكون محجوبًا عن الحق، عليها غِشاوة ورَان من الكُفْر والفجور: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} [فصلت: 5]، ووصَف القلبَ بالقَسوة، وهو الذي لا يعرف الحق ولا يذعن ولا يخضع؛ {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: 74].

ومن أعظم مُفسِدات القلب التعلق بغير الله؛ يقول الله – سبحانه –: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} [مريم: 81]، فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه، فإنه إذا تعلَّق بغير الله وَكَله الله إلى ما تعلَّق به، وخذَله من جِهة ما تعلَّق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله – عز وجل – بتعلقه بغيره، والتفاته إلى ما سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى أمله ممن تعلَّق به وصل" (طب القلوب ص59).

وهو مَحَل الضياع والضلال، وهو مَوطِن العِلِل والأمراض، وقد ذُكِر مرض القلب في آيات كريمة، وفُسِّر المرض تارة بالشك والريب؛ كما قال مجاهد وقتادة في قوله: {أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا} [النور: 50]، {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: 10]، وتارة بالشهوة في قوله تعالى: {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [الأحزاب: 32].



ولذلك أمر الله نساء النبي ألا يَلِنَّ في كلامهن؛ فيَطمَع الذي في قلبه مرض الشهوة، وهو مَنبع الغل والحسد والحقد، فالحسد: جمرة تتَّقِد في الصدور، وآفة تعود على صاحبها بفيض من الأكدار، وكانت هذه الآية العظيمة عونًا للمؤمن في دعائه؛ {وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا} [الحشر: 10].

وهو محل الزيغ، ولهذا توسَّل المؤمنون إلى بارئهم باسمه الوهاب: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [آل عمران: 8].

وللقلوب إدبار وإقبال، ويُصحِّح ذلك قولُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إن لهذه القلوب إقبالاً وإدبارًا، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإذا أدبرت فألزِموها الفرائض".

وما أحسن قول القائل:

إذا ما وضعت القلبَ في غير موضعٍ = بغير إناء فهو قلب مُضيَّعُ

وللقلوب اختلاف أمام الأمر الواحد:

ففي قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} [المدثر: 31]، تتضمَّن هذه الآية أربعة أحكام: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب، والخامس: حَيرة الكافر ومن في قلبه مرض وعمي قلبه عن المراد بذلك؛ فيقولون: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} [المدثر: 31]، وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزَّل عليها.

وخلاصة أمر القلب أنه يَمرَض كما يمرض البدن، وشفاؤه في التوبة النصوح.

ومرض القلب: هو نوع فساد يَحصُل له، يَفسُد به تصوُّره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تَعرِض له حتى لا يرى الحقَّ أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإراداته بحيث يُبغِض الحق النافع ويحب الباطل الضار (طب القلوب)



ويجب الإكثار من دعاء: اللهم يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك، فإن الله يحول بين المرء وقلبه؛ يقول - عز من قائل -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: 24].

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثِر أن يقول: ((اللهم ثبِّت قلبي على دينك))، فقال رجل: يا رسول الله، تخاف علينا وقد آمنا بك وصدَّقناك بما جئتَ به، فقال: ((إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن - عز وجل - يُقلِّبها))؛ صحيح ابن ماجه للألباني.

وأسألك من خير ما تعلم:

الخير: ضد الشر، وهو حصول الشيء بتمامه كقوله: خار الله لك، ويقال رجل خير وامرأة خيرة ففي قوله: {وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} [التوبة: 88]، جمع خيرة، وهي الفاضلة من كل شيء.

والخير مفتوح جامع لكل خير، شامل لخير الدنيا والآخرة، وهذا سؤال عظيم، فإذا شَمِل الخير حياة المؤمن كانت حياته آمنة مطمئنة، يُمسي في خير، ويصبح في خير، ويرى قضاءَ الله له كله خير، وليس معنى هذا أنه لن يُصاب بمصيبة، أو تناله الأحزان والهموم، فالمرء ليس بسالم من الآفات على الإطلاق ولنا في حادثة الإفك عِبرة؛ حيث يقول الله فيها: {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [النور: 11].

فالمصيبة قد تكون له خيرًا، والهموم قد تكون له خيرًا، وإن رُزِق بإناث قد يكون له خيرًا، وإن حُرِم الذرية قد يكون له خيرًا؛ فقتل الخضر للطفل، كان خيرًا لوالديه ليُبدِلهما خيرًا منه.

وفي هذا كله يقول - عز من قائل -: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} [البقرة: 216]، فإذا اطمأن بهذا الدعاء صار متوكلاً على ربه، عنده يقين وسكينة ورضا لكل ما يناله في هذه الدنيا، وقد وصف - سبحانه - نبيه في قوله تعالى: {أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ} [التوبة: 61]؛ أي يسمع الخير ولا يسمع الشر، فالمرء بضعفه وقلة عِلمه لا يعلم ما يصبح فيه ولا ما يُمسي فيه، ولا يعلم أين يكون الخير له، فإذا لجأ إلى العليم الحكيم، وتعلَّق بحباله ووكَل أمره إليه، وكان على صلة به - سبحانه - صارت حياته كلها خيرًا.

ومن الأدعية المأثورة ما يؤكِّد هذا المعنى: ((اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم))، ودعاء: ((اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخَلْق أَحْيِني ما علِمتَ الحياةَ خيرًا لي وتوفَّني ما علِمتَ الوفاةَ خيرًا لي))، فكان الدعاء بالخير شاملاً أمر الحياة والممات، وإعادة

الخير على الخالق، وفي قوله تعالى: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [الرحمن: 70]؛ قال أبو إسحاق: "المعنى أنهن خيرات الأخلاق، حِسان الخَلْق"، وفي الحديث: ((خيركم مَن يُرجى خيره ويؤمن شَرُّه، وشركم مَن لا يُرجى خيره ولا يؤمن شَرُّه))؛ رواه الإمام أحمد والترمذي، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط.

وقوله: خيرُ النَّاس خيرهم لنَفسه؛ ذكره ابن الأثير في "النهاية"، وفي حديث آخر: ((خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي))؛ رواه الترمذي وابن ماجه.

قال أبو عبيد: ومن دعائهم في النكاح (على يدي الخير واليمين).

وقال تعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: 68].

فالله وحده يعلم الخير، وحتى في إخفاء العبد له وما يكنه صدره من خير، ويُصدِّق ذلك قوله سبحانه: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 149].

وأعوذ بك من شر ما تعلم:

أعوذ: بمعنى أعتصم بك يا رب الأرباب، فلا استعاذة ولا اعتصام إلا به.

من شر: معنى الشر: السوء، وهو ضد الخير، وأشرار: ضد الأخيار، ويقال: ما رددتُ هذا عليك من شرٍّ به؛ أي من عيب، ولكني آثرتُك به!

وفي حديث الدعاء: والشر ليس إليك؛ أي: إن الشرَّ لا يُتقرَّب به إليك، ولا يُبتغى به وجهك.

ورجل شرير: أي كثير الشر، وفي الحديث: ((لا تشار أخاك))؛ أي لا تفعل به شرًّا فتُحوجِه إلى أن يفعل بك مِثلَه؛ وحكي عن امرأة من بني عامر في رُقْية: أرقيك بالله من نَفْس حَرَّى، وعين شرَّى (الشرى)؛ العَيَّانة من النساء؛ (لسان العرب).

وقد ورد ذِكْر الشر في القرآن مرة مقرونًا بالخير كقوله تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} [الإسراء: 11]، يُخبِر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله (بالشر)؛ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربُّه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} [يونس: 11]، وكذا فسَّره ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقد تقدَّم في



الحديث: ((لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن تُوافِقوا من الله ساعةَ إجابة فيستجيب فيها))، وإنما يَحمِل ابن آدم على ذلك عجلتُه وقلقُه؛ ولهذا قال تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} [الإسراء: 11]؛ تفسير ابن كثير.

وقوله تعالى: {لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} [فصلت: 49]، وقوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: 19 - 21]، وقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: 35]؛ والشر هنا بمعنى: الشدة والسَّقم، والفقر والحرام والمعصية والضلال.

وأفرد الشرَّ في آيات؛ كقوله: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ} [ص: 55، 56]؛ أي: سوء مُنقلَب ومرجع.

في قوله تعالى: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} [الناس: 4]، وفي قوله: {وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفلق: 3 - 5]، وقول الله تعالى على لسان يوسف في إخوته: {قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} [يوسف: 77]، وقول الله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [الأنفال: 22].

وقد ورد ذِكر الشر في تعوُّذاته عليه الصلاة والسلام في كثير من الأدعية المأثورة، منها: ((اللهم إني أعوذ بك من شرِّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها))، وفي خطبة الحاجة: ((ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا))، وفي حديث: والخير كله بيديك والشر ليس إليك: أي لا يُتقرَّب به إليك، ولا يُبتغى به وجهك، ولا يصعد إليك إلا الطيبُ من القول والعمل.

وقد يأتي الأمر بالخير وبالشر ففي حديث أبي هريرة، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((الريح من رَوح الله تعالى، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها، فاسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرِّها))؛ رواه أحمد بإسناد حسن.

وعندما يستعيذ المسلم من شرِّ ما يَعلمه الله، دليل على أنه يذل ويعترف بجهله بأمور كثيرة، وأنه لا يعلم إلا ما علَّمه الله، وإلا هناك ما يخفى عليه، فهل هو مقبول عند الله، وهل قُبِلت أعماله أو هي مردودة عليه، ثم لا نعلم هل ما عمِلناه شر أو خير في عِلمنا الضعيف.

ومن الأمثلة العربية: "شر الناس مَن اتقاه الناس لشره"، واتقِ شرَّ من أحسنتَ إليه.

وما أحسن قول الشاعر:

فقالت هجيئًا، قلتُ قد كان بعض ما = ذكرت لعل الشر يُدفع بالشر

فانظر إلى قول الله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: 47]، رحمتك يا رب.. وعفوك وكرمك!

إن بدا لنا من الله ما لم نكن نَحتسِب فمَن منا يَضمن عملَه، ومَن منا أحصى أعماله شرًّا أو خيرًا؟! ومن منا يعلم ما جنى طيلة حياته وأيام عمره، وقد أحصى الله علينا مثقالَ الذَّرِّ؛ كما قال تعالى: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [المجادلة: 6]. نعتصم بالله وقدرته من شر أعمالنا، ومن سيئاتها.

وجاء تأكيد هذا المعنى في آيات كثيرة:

قال تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: 4].

وقوله تعالى: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا} [يونس: 61].

ما تعلم: دَلالة واعتراف على أن الله عالم ومحيط بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا إيمان باسم الله العليم الذي ورد في القرآن الكريم أكثر من مائة وخمسين موضِعًا؛ يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله -: "أجمع العلماء على أنه أكبر واعظ وأعظم زاجر، نزل من السماء إلى الأرض، ولا تكاد تُقلِّب ورقةً من أوراق المصحف إلا وجدتَ فيها هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم: {يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ} [النحل: 19]، وفي قوله تعالى: {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه: 7].

وأستغفرك مما تعلم:

يقول ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين: "والذنوب التي يُبتلى بها العباد يَسقُط عنهم عذابها، إما بتوبة تَجُبُّ ما قبلها وإما باستغفار، إما بحسنات يُذهِبن السيئات وإما بدعاء المسلمين وشفاعتهم أو بما يفعلونه من البِرِّ، وإما بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره يوم القيامة، وإما أن يُكفِّر الله خطاياه بما يُصيبه من المصائب؛ فقد تَواتَر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ((ما يُصيب المسلم من أذى شوكة فما فوقها إلا حطَّ الله بها خطاياه كما تَحُط الشجرةُ اليابسة ورقَها))؛ رواه البخاري.

والاستغفار نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة، فالمفرد؛ كقول نوح عليه السلام لقومه: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} [نوح: 10، 11].

والمقرون؛ كقوله تعالى: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [هود: 3]، وقول شعيب لقومه: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [هود: 90]" انتهى كلامه، وذكر الأحاديث أولاً ثم أقوال التابعين.

ومن أحاديث الرسول في الاستغفار:

في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أَذنَب عبدٌ ذنبًا فقال: ربي إني عمِلتُ ذنبًا فاغفر لي، فقال الله - عز وجل -: عَلِم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب قد غَفرتُ لعبدي، ثم أذنب ذنبًا آخر - إلى أن قال الله في الرابعة - فليعمل ما شاء)).

وفي الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما أصرَّ مَن استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة)).

وحديث صلاة التوبة محفوظ في السنن عن علي عن أبي بكر الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ما من مسلم يُذنِب ذنبًا فيتوضَّأ، ويُحسِن الوضوء، ثم يُصلِّي ركعتين، ويستغفر الله إلا غُفِر له))؛ صحيح رواه أبو داود في كتاب الصلاة، وقرأ هذه الآية: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [آل عمران: 135].

وخرَّج الحاكم من حديث عقبة بن عامر أن رجلاً أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أحدنا يُذنِب قال: ((يكتب عليه))، قال: ثم يَستغفِر منه، قال: ((يُغفَر له ويتاب عليه))، قال: فيعود فيُذنِب، قال: ((يُكتَب عليه))، قال: ثم يَستغفِر منه ويتوب، قال: ((يُغفَر له ويتاب عليه، ولا يَمَل الله حتى تَمَلوا))؛ حديث صحيح على شرط البخاري.

قال عمر بن عبدالعزيز في خطبته: من أحسن منكم فليَحمَد الله، ومن أساء فليستغفر، وفي رواية أخرى: أيها الناس، مَن ألَمَّ بذنبٍ، فليَستغفِر الله وليَتُبْ، وإن عاد فليَستغفِر الله وليتب، فإن عاد فليستغفر الله ولَيتُب، فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك في الإصرار عليها.

أمر الله المؤمنين بالتوبة قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التحريم: 8].



والتوبة النصوح: هي الخالصة من كل غشٍّ وفساد، وسُمِّيت نصوحًا؛ لأنها تحتاج إلى جهاد وصبر على عدم الرجوع إلى ما ألِفه من المعاصي، وعقد العزم على ألا يعود، ومخالفة هوى النفس، ولذلك كان جزاؤها عظيمًا بتكفير السيئات ودخول الجنات.

قال عمر بن الخطاب وأُبَي بن كعب رضي الله عنهما: "التوبة النصوح أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرع".

وقال محمد بن كعب - وهو من التابعين -: "التوبة يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان - والإقلاع بالأبدان - وإضمار ترْك العَوْد بالجَنان - ومهاجرة سيئ الإخوان".

ومن الوقفات العجيبة في سيرة الإمام الفضيل بن عياض قصة توبته، قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (8 / 423): "قال أبو عمار الحسين بن حُريث، عن الفضل بن موسى قال: كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسَرخس، وكان سبب توبته أنه عشِق جارية، فبينما هو يرتقي الجُدران إليها، إذ سمِع تاليًا يتلو {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ} [الحديد: 16]، فلما سمعها، قال: بلى يا رب، قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خَرِبة، فإذا فيها سابِلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نُصبِح؛ فإن فُضيلاً على الطريق يَقطَع علينا، قال: ففكَّرتُ، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا، يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تُبْت إليك، وجَعلتُ توبتي مُجاورة البيت الحرام".

أدعية وردت لبعض السلف في الاستغفار:

((اللهم إني أستغفرك مما تبتُ منه ثم عُدَّت فيه)):

ومنها: ما ذُكِر عن يحي بن معاذ وقد كان واعظاً عابداً زاهداً "كيف أمتنع بالذنب من الدعاء ولا أراك تمتنع بالذنب من العطاء".

والاستغفار دأب المتقين؛ ففي آية عظيمة من كتاب الله يُبيِّن فيها أن المتقين ليسوا معصومين، بل إنهم ربما ارتكبوا الفواحشَ، وفي هذا عدم تزكية عالم أو طالب علم، فليس هناك معصوم إلا الأنبياء؛ يقول - عز من قائل -: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: 201]، وفي هذا يقول ابن تيمية: "الذنوب مُقدَّرة عليه، لازمة له، مُدرِكها لا محالة، وذلك بمقتضى الطبيعة البشريَّة، وبمقتضى قَدَر الله الكوني".

فالعبد المؤمن لا بد أن يَرتكِب ما قُدِّر له من الذنوب؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: ((كُتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مُدرِك ذلك لا محالة))، قصة من حديث رواه البخاري ومسلم.

فمن رحمته بعباده أن جعل لهم مخرجًا بالتوبة والندم والاستغفار وعمل الحسنات؛ لأن الحسنات ماحية للسيئات؛ قال ابن القيم - رحمه الله - في الفوائد: "مثال تَولُّد الطاعة ونُموِّها وتزايدها - كمَثَل نواةٍ غرستَها فصارت شجرة، ثم أثمرتْ فأكلت ثمرَها، وغرستَ نواها، فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمرَه، وغرست نواه، وكذلك تداعي المعاصي، فليتدبَّر اللبيب هذا المثال؛ فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها".

وقد ورد دعاء المؤمنين بالتوبة والاستغفار في قوله تعالى: {رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} [آل عمران: 193]، وقوله تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} [آل عمران: 147].

وجاء ذِكْر حملة العرش واستغفارهم للمؤمنين يطلبون من الله - عز وجل - أن يعفو عن المؤمنين

قول الله تعالى:

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر: 7]

وقوله تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الشورى آية 5].

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [النساء: 64]:

"يُبيِّن الله - سبحانه - أنه ما بعث من رسول إلا ليُستجاب له بأمر الله تعالى، ولو أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم باقتراف السيئات جاؤوك أيها الرسول في حياتك تائبين سائلين الله أن يَغفِر لهم ذنوبَهم، واستغفرت لهم لوجدوا الله توابًا رحيمًا"؛ التفسير الميسر.

وهذا تأكيد على أن استغفار الرسول في حياته وليس بعد مماته، كما يظن أهل البدع، والله كريم عفو يعفو ويغفر، فما أرحمه وما أكرمه بعباده المؤمنين!

وأستغفرك مما تعلم: إحاطة الله وعِلْمه بأعمال عباده خيرًا أو شرًّا، وأنه عالم بنيَّاتهم وصِدْقهم في توبتهم ورجوعهم إليه، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

ومن الاستغفار: استغفار المؤمنين للصحابة والتابعين وبعضهم لبعض: {وَالَّذِينَ جَاؤوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10]، واستغفار الأنبياء: {وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} [نوح: 28]

وفي الحديث الذي رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرِضوا عليه صِغارَ ذنوبه، ويُخبَّأ عنه كِبارُها، فيقال: عمِلتَ يوم كذا كذا وكذا، وهو مُقِر لا يُنكِر، وهو مُشفِق من كِبارِها، فيُقال: أعطوه مكان كل سيئة عملِها حسنة، فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها ها هنا))، قال أبو ذر: فلقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحِك حتى بدت نواجِذُه.

وفي هذا يقول ابن القيم - رحمه الله -: "الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفِّرة تارة، وبدخول النار ليتخلَّص من أثره تارة"؛ لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبث، اللهم افتح لنا باب الحسنات وباب التوبة، وارزقنا من اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا، وحَرِّم النارَ على جلودنا، واصرف عنا عذابَ جهنم، وأدخلنا الجنةَ بغير حساب يا أرحم الرحمين!

إن الله يحب التوابين، والتواب صيغة مُبالَغة من التوبة، وهو كثير الرجوع إلى الله، فإذا غشى الخوف والرجاء قلب المؤمن، وأحسن الظن بربه، وأدرك رحمته وغفرانه، فديدنه كلما أذنب تاب وأناب.

وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر: ((يا عبادي، إنكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفِر الذنوب جميعًا، فمن علِم أني ذو قدرة على المغفرة، غَفَرتُ له ولا أبالي))

وقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: 70].

وقال: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53].



قال ابن عباس: "ما رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فَرِح بشيء قط فرَحه بهذه الآية لما أُنزِلت، وفرحه بنزول قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: 1، 2].

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عمِلوها بحسنات يوم القيامة فيُعطيهم مكان كلِّ سيئة حسنة.

ثم قال تعالى مخبرًا عن عموم رحمته بعباده، وأنه مَن تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان، جليل أو حقير، كبير أو صغير، فقال: {وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان: 71]؛ أي: فإن الله يَقبلُ توبته؛ كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 110]، وقال: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 104].

فعلى المؤمن أن يُسارِع إلى التوبة ويتزوَّد بصالح العمل، ويجعل الاستغفار نفَسًا يتنفَّسه، والتوبة قرينة ساعاته ودقائقه.

إلى الله تُبْ قبل انقضاءٍ من العُمْر = أُخَيَّ ولا تأمَنْ مفاجأةَ الأَمْرِ

تنوحُ وتبكي للأحبة إن مَضَوا = ونَفْسَك لا تبكي وأنت على الإِثْرِ

فالأجل غير معلوم، فكم من نائم لم يستيقظ، وكم من مسافر لم يَعُد، وكم من حاجٍّ مات في حجه! وتلك نعمة لِمَن قبضه الله على صالح عمله؛ قال لقمان لابنه: "يا بني، لا تؤخِّر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة".

وقال بعض الحكماء: "لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عملٍ، ويؤخِّر التوبةَ لطول الأمل".

وقال عمرو بن العاص - رحمه الله - عند موته: "اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا عفوُك، لا إله إلا الله ثم ردَّدها حتى مات"، اللهم اجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله، واقبِضنا على طاعة تُحبها يا ذا الجلال والإكرام!

إنك أنت علام الغيوب:

معنى العلم: هو إدراك الشيء بحقيقته، والعلم نور يقذفه الله في قلب من يحب ولهذا متى أراد الله لعبده خيرا وهبه نعمة العلم.



علاّم: لفظ مُشتَق من العلم، الغيوب: صيغة فعول للمبالغة ومن أعظم الآيات التي تصور لنا علم الله الشامل المحيط.

قول الله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: 59]، للشيخ السعدي تفسير عظيم لمعنى هذه الآية، نَذكُر بعضًا منه:

"هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلاً لعِلْمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يُطلِع منها ما شاء من خَلْقه، وكثير منها طوى عِلمَه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقِفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

وهناك معنى رائع يوضحه سيد قطب:

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض؟

إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحب الذي يخبؤونه هم في جوف الأرض ويرتقبون إنباته.. فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض؛ فمما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به، ولا أن يلحظوا وجوده، ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل! إنما الحب المخبوء في ظلمات الأرض شان يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق! (انتهى كلامه).

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام (أعلم الخَلْق) كان يقول في دعائه: ((لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك))، ويقول في دعاء الاستخارة، ((فإنك تعلم ولا أعلم)).

ويعلم ما في الصدور: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} [النمل: 74]، {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [النمل: 75]، {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [النمل: 25].

يقول ابن عثيمين في شرح العقيدة الواسطية، في قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [البقرة: 255]؛ أي: الماضي كله، كل ماضٍ وكل مستقبل، وإنه – سبحانه – لا ينسى ما مضى، ولا يجهل ما يُستقبَل لكمال عِلْمه، وعجز خَلْقه عن الإحاطة به.



وقد يُخبِر الله – سبحانه وتعالى – عن بعض تفاصيل ذلك لبعض خَلْقه، كما يُطلِع الملائكة ويأمرهم أن يكتبوا للجنين في بطن أمه قبل ولادته أجلَه ورزقَه، وشقي أم سعيد؟ لكن ذلك كله مُعلَّق على مشيئته، فإن شاء أمضاه، وإن شاء محاه؛ {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39].

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول قبل يوم بدر: ((هذا مصرع فلان غدًا، إن شاء الله))؛ رواه مسلم، فليس ذلك بمُعارَض بقول الله – عز وجل –: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34]، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم حين أخبر عن أماكن موتهم ووقته، فإنما علَّق ذلك على مشيئة الله – سبحانه وتعالى – فعِلْم الساعة ونزول الغيث، وعِلْم ما في الأرحام وموت الإنسان ومعاشه ومستقبله كل ذلك محيط بعلمه؛ فمفاتح الغيب الخمس على عمومها لا يعلمها إلا الله، وهذه الآية لا تُخصَّص، بل قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تَغِيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نَفْسٌ بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله))؛ رواه البخاري.

قال قتادة – رحمه الله –: "أشياء استأثر الله بهن، فلم يُطلِع عليهن مَلَكًا مُقرَّبًا، ولا نبيًّا مُرسلاً؛ {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [لقمان: 34]، فلا يدري أحدٌ من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، أو ليل أو نهار؟، {وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ} [لقمان: 34]، فلا يعلم أحدٌ متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهارًا، {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} [لقمان: 34]، فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو؟ {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا} [لقمان: 34]، أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ لعلك الميت غدًا، لعلك المصاب غدًا، {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} [لقمان: 34]، ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر، أو سهل أو جبل؟"؛ تفسير ابن كثير (6 / 355)، أما معرفة جنس الجنين في العلم الحديث، فهو من خلال تصويرهم بجهاز الأشعة، ولا تظهر حقيقته إلا بعد أن يَكبَر، فهذا ليس دليلاً على عِلْمهم بالغيب، أو قدرتهم على عِلْم ما في الأرحام.

ولا يحيطون بشيء من علمه:

قال البقاعي في تفسيرها: ولما بين قهره لهم بعلمه بين عجزهم عن كل شيء من علمه إلا ما أفاض عليهم بحلمه فقال} :ولا يحيطون بشيء {أي قليل ولا كثير} من علمه إلا بما شاء {فبان بذلك ما سبقه، لأن من كان شامل العلم ولا يعلم غيره إلا ما علمه كان كامل القدرة، فكان كل شيء في قبضته، فكان منزهًا عن الكفوء متعاليًا عن كل عجز وجهل، فكان بحيث لا يقدر غيره أن ينطق إلاّ بإذنه لأنه يسبب له ما يمنعه مما لا يريده.

وهو - جل جلاله - يعلم ما بداخل الإنسان من خفايا ورقائق بدنه، وما يُخفي في صدره، وما يُفكِّر فيه، وما يَخطُر بباله قبل أن يخطر سبحانه لا نَصِل إلا أن نَعجِز عن وصْف عِلْمه؛ فعِلْم الخلائق لا يَصِل إلى تبارك وتعالى فهو سبحانه! فلا يَصِل علم الخلائق إلا كما يضع أحدنا إصبعه في اليم بالنسبة لعِلْم الله {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ} [سبأ: 3]؛ سبحانه! لا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيعلم سبحانه الظاهر والباطن، والجليل والحقير، والساكن والمتحرك، ويعلم ما يَلِج في الأرض وما يخرج منها، ومهما بلغ الإنسان من العلم فهو مِنَّة من الله العليم، ولكنه لا يكاد يتلاشى عند علام الغيوب {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول قبل يوم بدر: ((هذا مصرع فلان غدًا، إن شاء الله))؛ رواه مسلم، فليس ذلك بمُعارَض بقول الله - عز وجل -: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34]، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم حين أخبر عن أماكن موتهم ووقته، فإنما علَّق ذلك على مشيئة الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: 109]

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقولون للرب - عز وجل -: لا عِلْم لنا إلا عِلم أنت أعلم به منا؛ رواه ابن جرير واختاره على هذه الأقوال، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب - جلَّ جلاله -: أي لا عِلْم لنا بالنسبة إلى عِلْمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أجبنا وعرَفنا مَن أجابنا، ولكنَّ منهم مَن كنا إنما نَطَّلِع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطَّلِع على كل شيء، فعِلْمنا بالنسبة إلى عِلْمك كَلا عِلْم، فإنك أنت علام الغيوب"؛ ابن كثير.

وفي قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: 4]: قيَّد السلفُ المعيةَ المذكورةَ في هذه الآيات بأنها معية (العِلم)؛ فقال ابن عباس: عالم بكم أينما كنتم، وعن سفيان الثوري، أنه سُئل عنها فقال: عِلْمه؛ الدر المنثور، وقال الإمام أحمد: "افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم"؛ تفسير ابن كثير.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7]، وكذا قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} [سبأ: 2].

تم بحمد الله، اللهم إني أشكو إليك ضعفي وقلة حيلتي، فاجعلني من المخلصين!

شرحه/ خيرية محسن الحارثي: داعية وكاتبة إسلامية ومحاضرة ومشرفة على بعض دور تحفيظ القرآن التابعة لمعهد الدراسات القرآنية بمكة المكرمة.